التريودي وحياتنا الروحية

الميتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن فترة التريودي هي نموذج مُصغّر لكامل الحياة الروحية للإنسان. يكفي للمرء أن يتتبع معاني تراتيل الأيام ليرى مضمار الجهاد الذي جعله الإنسان أمامه. يبدأ من وضع الأساس للحياة الروحية وحتى النهاية، وهو تقديس وتأليه الإنسان. التريودي هو فترة روحية غنية جداً، وبحسب الظروف الخاصة بكل شخصٍ يعيش ضمن الالتزامات المتنوعة التي لديه، ليس من السهل عليه أن يتتبَّع بشكلٍ كاملٍ كل الفرص الروحية التي تمنحنا إياهاهذه الفترة.

تقسم فترة التريودي إلى ثلاث فترات. واحدةٌ قبل بدء الصوم، وأخرى هي فترة الصوم المقدس، ثم الأسبوع العظيم لآلامِ الرب المقدسة والقيامة. الفترة ما قبل الصوم هي فترة تحضيرية، ترينا كيف نجاهد وما هو الطريق الحقيقي الذي يُدخل الإنسان إلى الجهاد الروحي. إن أساس كل الحياة في المسيح ليس إلا موقف التوبة. تولد التوبة من التواضع.

الأحد الأول من التريودي هو أحد الفريسي والعشار. يرينا الرب هنا بوضوحٍ إنساناً مليئاً بالخطايا وعديم الأخلاق بالكامل قد بُرِّر أمام الله. وفي الوقت نفسه، يُرينا إنساناً خلوقاً، تقياً و "متديناً"، يتقيد بجميع أحكام الناموس، ولكنْ عوض أن يُبرر من الله فقد دِين، لأنه لم يجد المفتاح الذي به يستطيع أن يفتح باب الحياة الروحية. هذا المفتاح هو مفتاح التوبة والتواضع. هذان [التواضع والتوبة] يترافقان معاً. لا يمكن لإنسانٍ بدون تواضع أن يتوب؛ لا يستطيع الإنسان المتكبر أن يتوب. وحده المتواضع من يتوب حقاً، لأن التوبة تعني انكسار قلب الإنسان، وعبر هذا الانكسار يجب على الإنسان أن يدعو باسم الله، وهو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يخلّصه. التوبة هي شدّة وألم. ولكنْ، هكذا تتقوَّم [أنت]. التوبة هي المفتاح الذي يفتح باب رحمة الله. لأن الطبيعة البشرية لا يمكنها مطلقاً أن تحوز "عدم الخطأ". وحده المسيح كإنسان كان عديم الخطيئة، وبالنعمةِ والدة الإله الفائقة القداسة التي تلقت هذه العطية من الله. لا يمكن أن نتخيل أن نصبح يوماً ما بلا خطيئة، لأن ذلك مستحيل. بما أن الخطيئة هي أمر مُسلَّم به ولا يمكن تجنبها عملياً بالنسبة لنا، فإن ما يمكنه أن يُحضِرنا أمام الله ليس أعمالنا وفضيلتنا بل توبتنا الحقيقية. هكذا نزيل خرافة أننا سنصبح أخلاقيين وفاضلين، لأنه مهما كنا أخلاقيين فمن المؤكد أنه لدينا خطايا. لذلك فإن علاقتنا بالله لا يمكن بناؤها على حقيقة أننا سنفرُّ من الخطيئة بل على حقيقة التوبة. نحن نتعلّم أن نتوب ونقف باستقامة أمام الله بروح التوبة.

إذاً فالتوبة تولد من التواضع. الإنسان المتواضع يتوب ولا يختلق الأعذار. حالما يقوم بمحاولةٍ لتبرير الذات، لا يستطيع الإنسان أن يتوب. حين يدعم نفسه بظروفٍ مُخفِّفة، فإنه في ذات الوقت يُضعف شعلة التوبة. لهذا لم يقبل الآباء [القديسون] أي عذرٍ، ليس لأن لا عُذر لمن يخطأ [١]، إذْ إننا جميعنا حين نخطأ نكون خاضعين

لحدثٍ ما. مع ذلك، إذا واجه المرء الخطيئة بتوجع قلبٍ ووقف، مثل القديسين، بلا عذرٍ أمام الله، وتعلّم روح العشار، عندها يكون ذلك أساس النجاح. كل شيء يقودنا إلى هذه الحالة.

الأحد الثاني هو أحد الابن الشاطر، الذي يظهر عظمة محبة الله للإنسان، وكيف يقبل الله عودة الإنسان. لا سبيل لطرد التائب. لا يمكن أن تعود إلى الله وأن يخرجكَ خارجاً..

الأحد الثالث يرينا عبر وصف المجيء الثاني أن الإيمان ليس أمراً مجرداً بل هو واقعي عبر أعمال المحبة والجهاد الروحي.

يرينا الله في الأحد الرابع الطريقة الحقيقية للصوم، وأن علينا أن ننقل قلوبنا إلى حيث يكون كنزنا.

يلي الأسبوعَ الأول من الصوم أحدُ الأرثوذكسية. تاريخياً، هناك سبب لمسألة الحرب على الأيقونات، والتي عذّبت الكنيسة لأكثر من قرن. ومن ثمَّ، بعد أن تم وضع حدٍ لها تاريخياً ولاهوتياً، تحتفل الكنيسة بهذا اليوم. مع ذلك، وكما يقول الآباء [القديسون]، ليس حدثاً تاريخياً. حقيقة الحرب على الأيقونات تبقى دائماً أمامنا، لأن هذه الحرب ضربت في مركز خلاص الإنسان. إنها الهرطقة الأصلية التي تتكرر كل مرة بهيئة مختلفة. تقول الهرطقة بأن الله لم يصبح إنساناً بالحقيقة. وبالتالي، بما أن الله لم يصبح إنساناً بالحقيقة، فإنه لا يمكن للإنسان أيضاً أن يصبح بالحقيقة إلهاً بالنعمة. حين رفض أولئك الناس أن يكرموا الأيقونات وازدروها، فيما الآباء [القديسون] والكنيسة أصرت على تكريمها، لم يكن ذلك بسبب أن البعض كانوا أتقياء وخافوا أن تكون [الأيقونات] أوثاناً فيما الأخرون لم يكترثوا و قللوا من شأن الموقف. بالتأكيد لم يكن الأمر هكذا.

لقد وقف [الآباء القديسون] على حقيقة أنه منذ اللحظة التي أصبح فيها المسيحُ، كلمة الله، إنساناً وكان إنساناً تاماً وإلهاً تاماً، أمكننا وصف ورسم المسيح. ذلك لأن إيماننا بأكمله يرتكز على التجسد الحقيقي لكلمة الله، الذي يقول يوحنا اللاهوتي فيه: "الكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده"، رأينا تجسد الله. بكلمةٍ أخرى، لقد ضربت هذه الهرطقة بشكلٍ أساسي بعمق الإيمان ذاته. في حيز الكنيسة لسنا نتعامل مع أفكارٍ أو نظرياتٍ أو فلسفات، بل مع شخصٍ يدعى يسوع المسيح. هذه ليست أفكار الإنجيل، مهما كانت جميلة. في الكنيسة لا نعبد المحبة والحرية كأفكار، بل علينا أن نقيم علاقة مع شخص ربنا يسوع المسيح. هذا المسيح الذي أصبح إنساناً ويبقى في الكنيسة بشخصه الذي رأيناه. لم نرَ الآب مطلقاً. ولكننا رأينا الله الكلمة، وبرؤية الله الكلمة قد رأينا الآب، لأن المسيح هو صورة الآب، والإنسان هو صورة المسيح. لهذا صار المسيح إنساناً، لأننا صورته وهو مَن خلق كل شيء.

لذلك فإنه في مدى الكنيسة لدينا حقيقة حضور المسيح. وحيث أن لدينا شخصاً، فإن موقفنا تجاه ذلك الشخص ليس موقف إيمان. لا يكفي أن تُخبر المسيح بأنك تؤمن به. في الإيديولوجيات وأنظمة الأفكار، في وجهات النظر العالمية وأيديولوجيات الأحزاب، يمكنك القول بأنك تؤمن. ولكن ذلك غير ممكن في الكنيسة. ما يحصل هو أنك، نعم، تخطو على سلم الإيمان ولكنك لا تبقى هناك، بل تصعد تجاه المحبة. ضمن الكنيسة أنت مدعو لتنمي علاقة محبة مع المسيح، كما أنك بحاجة لقبول حقيقة المسيح والإنجيل، وهذه هي الخطوة الأولى. لكنْ لا يمكنك أن تتوقف هناك. عليك الذهاب إلى خط النهاية. يقول الرسول بأنه، في النهاية، سيَبطل

الرجاء والإيمان كلاهُما وتبقى المحبة. الشاب الذي يبحث ويبحث ليرى أين تكمن الحقيقة، عليه أن يفهم بأنه إذا ما قارن الكنيسة مع حقائق أخرى واعتبرها إحدى الحقائق، فإنه، بغض النظر عن حسن نيته، لا يمكنه أن يفهم أن الكنيسة لا تتحدث عن حقيقة، بل عن المسيح الذي هو حقيقة العالم. المسيح هو الحقيقة والحرية والعدالة والسلام، هو الألفا والأوميغا/الألف والياء، هو كل شيء في الكنيسة. لذلك فإن كل ما نفعله في حقل الكنيسة، كل الجهادات التي نقوم بها، هي لنكون قادرين أن نحب المسيح بكل قلوبنا، ولنستطيع أن ننمي علاقة محبة خاصة بنا مع المسيح.

ولكن كيف يتم ذلك؟ أول شيء هو التقصي لاكتشاف من هو هذا الشخص. لهذا، في بداية الحياة الروحية، تساعد الدراسة كثيراً. كثيراً حتى أن الآباء [القديسين] يقولون إنه، بالنسبة للمبتدئين، فإن الدراسة تساعد أكثر من الصلاة أو على الأقل بقدرها. من المهم جداً قراءة الكتب الروحية وسير القديسين لنرى كيف وقع هؤلاء الأشخاص في حب الله وجاهدوا في حياتهم، أينما كانوا، وعمَّدوا حياتهم في مضمار علاقتهم بالله. وبعدها تبدأ عملية الحياة الروحية. يبدأ حفظ وصايا الله. ونبقى في محبة الله عبر حفظ وصاياه. ليست هذه الوصايا أوامر أهوائية بل أدوية. إنها العلاج الشافي لكنيستنا، والذي حالما يلتزم المرء به فإنه يعطي نتائج. طالما أن الإنسان يحفظ وصايا الله، تتولد الغيرة التي هو قوة، التي يمنح الإنسان الانجذاب ليكون قادراً على الجهاد أكثر. حالما يتناقص حفظ وصايا الله، تبدأ القوة أيضاً بالأفول إلى أن تنطفئ، أي يتوقف الجهاد الروحي. يعطي الله نعمته مجاناً في البداية. حالما يدخل أحدٌ إلى الكنيسة يكون كل شيء سهلاً. دراسة (قراءة) حياة القديسين، الاشتراك في الخِدَم المختلفة، حفظ الأصوام، كل شيء يصبح سهلاً. لاحقاً، على الإنسان أن يسعى جاهداً لتلقي هذه النعمة.

لذلك فإن الله، الذي أصبح إنساناً بالحقيقة وهو الله الكلمة المتجسد، هو نموذج لكل منا ومركز محبتنا. إننا مدعوون لتكون لنا علاقة شخصية معه، وخلال هذه العملية نعيد بناء نفسنا المحطمة، الأمر الذي له نتيجة واحدة: استعادة صورة الله التي حطمها الشيطان عبر السقطة. داخل الكنيسة، ومع كل هذا العلاج الشافي، علينا رؤية حقيقة شفائنا، الذي هو محدد وله ثمار محددة.

[١] الخلط بين "يخطئ" و"يخطأ" خطأ شائع في أوساطنا الكنسية. الإنسان يخطئ خطئاً ويخطأ خطيئة. لهذا العبارة الصحيح في التريصاجيون، كما هو مكتوب في كتاب خدمة الكهنة، "... ما من إنسان يحيا ولا يخطأ، إلا أنت وحدك..." لكن غالبية الآباء يلفظونها "ما من إنسان يحيا ولا يخطئ..." وهذا كلام ينافي المنطق كما ينافي ما يورده المطران أثناسيوس هنا [المترجم]

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol. The Triodion and our Spiritual Life. Excerpt from a recorded lecture was translated by John Sanidopoulos. http://www.mystagogyresourcecenter.com/2023/02/the-triodion-and-our-spiritual-life.html